



«ذات الرداء الأحمر» أو «ليلى والذئب»

لا أحد يجزم بشرقيّة هذه القصة. بل هي مترجمة بحذافيرها عن حكاية Red Riding Hood، ووصلت إلينا عبر الترجمة تحت اسم «ذات الرداء الأحمر» أو «ليلى والذئب». وهي لم توجد في أيّ من كتب التراث الشعبي العربيّ القديمة، ولكننا على الغالب نعرفها شفاهاً عبر قصص الأمّهات، ومن أفلام الصور المتحركة.

ومختصر الحكاية يدور حول ليلي الفتاة البريئة التي تعيش في كوخ جميل على مشارف الغابة، وقد طلبت منها أمّها ذات يوم أن تأخذ سلّة إلى جدّتها، شرط ألاّ تسلك الطريق البعيدة بل تذهب من الطريق الآمنة المعروفة. ولكنّها ترتدي معطفها الأحمر وتنتعل حذاءها الأحمر وتنسى نصيحة أمّها في الطريق، وسرعان ما تُبهر بجمال طبيعة الغابة، فيعترضها الذئب ويخدع سذاجتها ويتعرّف على منزل جدّتها، ليسبقها هناك، فتختبئ منه الجدة، لكنّه يحتل سريرها ويرتدي ثيابها كي يغرّر بليلى بعد وصولها. ولكنّ حينما هاجم ليلي، سمع صياح استغايتها صياداً شجاعاً مرّ من أمام المنزل، فأنقذها وجدّتها وقضى على الذئب.

### حكاية الإناث

بداية القصة تأخذنا باتجاه محيط أنثويّ يعجّ بالنساء أو بالأشياء المؤنثة، حيث الأم وليلى والسلّة والغابة والجدة، دون أن يعكّر هذا النسيج الهادئ وجود ذكوريّ مريك. بل إنّ الحكاية لم تورد أيّ وجود لآب ليلي أو لإخوة لها ذكور.

المادة لا تُنسى ولا تُستمدت. وهذه الخاصية تنطبق تماماً على الأسطورة، فهي لا تندثر ولا تفسى، بل تظلّ معتمطةً بجوهرها الداخليّ، ولكنّها تغير أديتها بتبدلّ الزمان والمكان، وتتخذ لكلّ آوان طابعا يلائمه، مشهوناً بمنات الشيفرات السريّة، لتجارب البشر على مرّ السنين وحكمتهم ونسبتهم. فأسطورة «بيت الغول وحجراته الأربعون» هي الوريث الشرقيّ لحكاية الشجرة المعرّمة، حيث الاعتداء على شجرة المعرفة برغم الوصايا والمهاذير. وهذا هو بالضبط ما قاد ذات الرداء الأحمر إلى أن تنسى وصايا أمّها وتلك طريقاً مخالفة. إنّها شهوة المعرفة والاكتشاف، التي لولاها لظلّ الإنسان حبيس واقمه ومحدوديته.

## ليلى والذئب والطريق القريب والطريق البعيدة

### أميمة الخميس

لم يكن هناك سوى ذلك الوجود المطمئن الهارب إلى مشارف الغابة بعيداً عن التحديات. ولكن لما كانت الحياة لا تمتلك وجهاً وحيداً أمنياً، فلا بد أن تتعرض تلك الضفاف الأمانة للتحديات. وسرعان ما يُخدش هذا الهدوء الرحمي المطمئن، عندما تمتلئ السلّة بالكعك والحلوى التي يجب أن تُنقل إلى الجدة.

وما هذه الأجيال الثلاثة (ليلي - الأم - الجدة) إلا ليلي بجميع أطوارها: الطفلة الغرة، ثم المرأة الناضجة، وصولاً إلى الجدة العاقلة الحكيمة التي سيكون الوصول إلى بيتها (معقل الحكمة) باهظاً وصعباً.

وفي تلك اللحظة التي قررت فيها ليلي أن ترتدي ثوبها الأحمر، تحدّد مصيرها وتوجّهها في القصة. فهذا اللون الدمويّ الضاح، الذي لا يقبل الحلول الهادئة أو الطرق القريبة، هو الإشارة التي تُبرق في وجه الصغيرات اللواتي يفكرن في العصيان والتمرد وسلوك طريق الشهوة والدم. وكانت البشرية دائماً تُجعل من الأحمر رمزاً للحرب والدم والغرائز الشهوانية، وتُجعل من كوكب المريخ رمزاً للحرب نظراً إلى لونه الدمويّ الأحمر. وظلّ اللون الأحمر يحمل هذه الرموز جميعها، وصولاً إلى المدينة الحديثة التي برقشت وجه المدن بالعلامات الحمراء التحذيرية.

ولكنّ التحذير لن يُثنى ليلي عن سلوك الطريق البعيدة جمالها وإغوائها. فما إنْ أُطبقت باب أمها وغادرت محاولة الوصول إلى بيت جدتها (معقل الحكمة) حتى غادرت طوراً من أطوار حياتها الطفولية البريئة. وقد يكون أحد أبعاد رداء ليلي الأحمر هو الدماء الأنثوية، فهذه إحدى علامات نضجها واكتمالها. ولكي يكتمل هذا النضج لا بد أن تصل السلّة الثمينة إلى بيت الجدة بسلام. لكنّ الطريق مغوية، والرداء الأحمر، والفراشات ترفرف حول ليلي وتحتدم.

ودائماً المعرفة باهظة ومكلفة، سواء في الأساطير أو الواقع. فشجرة المعرفة كان عقوبتها السقوط، وغرفة الغول الأربعون أدت إلى حقيقة مفاجئة، وفضول ليلي سيقودها إلى مواجهة مع الذنب... مع مصيرٍ قدرتي تحدّد عندما ارتدت ثوبها الأحمر ونسيت النصائح.

## الحضور الذكوريّ الأول

ينشرخ النسيج الأنثويّ، هنا، عن وجه الذنب. وهو الذكّر الذي يقطن الأماكن النائية والمريبة، ذكر المعصية والدروب الخلفية.

هذه البراءة وذلك النقاء اللذان تعاملت بهما ليلي مع الذنب ساقاها إلى مأزق رهيب، إذ سبقها الذنب إلى الطور الأكمل من أطوار نضجها واكتمالها، فأزال الجدة وجلس في سريرها بانتظار ليلي.

لم يعد هناك في معقل الحكمة سوى غريزة حيوانية شريرة تفتح أنيابها بالرغبة في التهام ليلي والقضاء على حلمها بالنضج والوصول. والذنب، سواء في الموروث الشعبيّ العربيّ أو العالميّ، هو الرمز الشرير الشرس الذي يعمل في الظلام ويخاتل الشاء كي يأخذ مأربه من القطيع.

وهناك على سرير الجدة ينتظر الذنب، منتكراً في ثياب الجدة، ليلي ذات الرداء الأحمر وسلتها المثقلة، ليلي الغرة البريئة التي نسيت الوصايا وطمأنت إلى الغرباء... الذين لم يكونوا سوى ذناب.

## فساد مقادير الطبخة

وللإناث مقاديرٌ عريقة وثابتة ومحترمة، يتبعنها عند إعداد الطعام، ويخترصن على تناولها جيلاً بعد جيل كسرّ أنثويّ ثمين ونادر. تلك المقادير عُبثت بها ليلي، وعندها انشرخ نسيج الحكاية الأمانة وسقط بين فكّي الذنب في مفارقة درامية ينتفي فيها التكافؤ العادل. فإذا ليلي الغضة البريئة، وإذا الجدة التي ترتجف خوفاً بعد أن اختبأت في إحدى خزانات المنزل، تواجهان... أنياب الذنب.

## الملائم

ولأنّ الحكاية ذات تصميم أنثويّ بامتياز، فإنّ «مُصمّماتها» لم يستطعن أن يُسدلن الستار عليها بنهاية درامية مفاجئة. ولذلك أقحمن في الحكاية ذكراً من نوع آخر، هو الصياد الشجاع. وبقيت ليلي لا حول لها ولا قوة أمام أنياب الذنب، ولم يتم لها النجاة إلا بذلك الذكر المشذب المهذب الذي له خصائص الأخ أو الزوج، فقد استجاب لاستغاثتها واقتحم الكوخ واستطاع تخليصها هي وجدتها.

## حزام العفة

حكاية «ليلي والذنب» هي حزام العفة الأول الذي تخطيطه الأمهات حول أدمغة الصغيرات، بمهارة وإحكام، لتُنضج الحدود تماماً بين الطريق القريبة والطريق البعيدة.

إنّها حكاية محمّلة بالرموز التي خزنتها البشرية عبر التاريخ. وهي رموزٌ تحذّر نوات الرداء الأحمر من أنياب الذنب. فليس في غابة الحياة سوى ذناب. وذلك أنّ هذه الغابة بجمالها، وتوحشها، أو بدائيتها، وفطرياتها، وجونها وغموضها، وتعدديتها اللامتناهية، وجوهها الكثيرة، إنّما تُختصر إلى بعد أحاديّ ومحدود: هو أنياب الذنب... في حكاية ذات نسيجٍ مخلص لأنثويته إخلاصاً تاماً!

الإمارات العربية المتحدة